سورة النور

سورة النور مدنيّة وآياتها أربع وستّون آية. وهي سورة عظيمة لاشتمالها على جملة من الأحكام التي ربما تقع في أكثر الأزمان ويقال: إن عمر بن الخطاب كتب إلى عامله وأهل الكوفة: أن علِّموا نساءكم سورة النور، والسورة تعني: الأمر الذي يحيط بالموضوع.

[١] يخبر جل وعلا أنه أنزل هذه السورة العظيمة على نبينا محمد ﷺ، وأنه فرضها وأوجب على العباد تنفيذ ما فيها من أحكام، وذلك دليل على أهمية هذه الأحكام، ثم أخبر أنه أوحى فيها آيات واضحات الدلالة اشتملت على جميع مصالح العباد، لعلكم تتذكرون أيها المؤمنون هذه الآيات وتعملون بما فيها من أحكام ومواعظ.

والتنكير في قوله: ﴿سُورَةٌ﴾، دليل على فخامة هذه السورة وأهميتها.

[٢] بين سبحانه في هذه الآية أحكام جريمة الزنا الشنيعة والتي تستقبحها النفوس الكريمة؛ وبين أنَّ حد الزاني والزانية أنْ يجلد كل واحد منهما مائة جلدة، وأن لا تأخذكم فيهما رحمة في دين الله عند إقامة الحد عليهما، إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر إيمانًا حقيقيًّا، وليشهد إقامة الحد عليهما عدد من المؤمنين ليكون ذلك عبرة وعظة وزجرًا.

والعقوبة المذكورة هي على الزانية والزاني البكرين، أي: الغير متزوجين، وقد ثبت في السنة النبوية مع الجلد التغريب لمدة عام، أما الزانية والزاني المتزوجين فإن حدهما الرجم حتى الموت، كما ثبت ذلك في السنة النبوية.

وقدم جل وعلا الزانية لأنها غالبًا هي المسبب لجريمة الزنا لما يظهر منها من إغراءات.

[٣] ثم بين جل وعلا أن الزاني هو الذي يستسيغ الزواج بالزانية أو المشركة التي لا تؤمن بحرمة الزنا، وأن الزانية كذلك تستسيغ الزواج بالزاني أو المشرك الذي لا يؤمن بحرمة الزنا، كما قال الشاعر:

والخارِبُ الرَّجِسُ يُحِبُّ الخارِبا

ومعلوم أن النكاح في القرآن هو عقد الزواج وليس الجماع، ولذا لا يجوز عقد النكاح على الزانية حتى تستبرئ بحيضة، ثم بين سبحانه أن هذا الفعل القبيح محرم على جميع المؤمنين والمؤمنات.

[٤-٥] واعلموا أيها الناس أن الذين يتهمون بالفاحشة امرأة أو رجلًا عفيفًا، ولم يأتوا بأربعة شهود عدول يشهدون بإثبات هذه التهمة؛ فعليكم أن تجلدوهم ثمانين جلدة عقابًا لهم، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدًا، ولا شك أن أولئك من الخارجين عن طاعة الله لقبح فعلهم. لكن من تاب توبة صادقة، وندم على فعله السيِّيء، ورجع عن اتهامه وعمل الأعمال الصالحة؛ فإن الله يغفر ذنبه ويرحمه ويقبل توبته. أما الشهادة فإنها تقبل عند الجمهور إذا تاب، أما أبو حنيفة فلا تقبل عنده الشهادة ولو تاب.

[٦-٧] ثم ذكر جل وعلا أن الذين يتهمون زوجاتهم بفاحشة الزنا ثم لم يكن معهم من يشهد بإثبات هذه التهمة إلا أنفسهم؛ فعلى الواحد منهم أن يشهد أربع شهادات بالله العظيم أنه صادق في هذه التهمة. وعليه أن يزيد شهادة خامسة بأن يقول: لعنة الله عليَّ إن كنت من الكاذبين، أي: أنه يدعو على نفسه بالطرد والإبعاد من رحمة الله.

[٨-٩] وبهذه الشهادة يجب أن يقام على الزوجة عقوبة الزنا، ولها الحق أن تدفع عن نفسها هذه التهمة وهذه العقوبة إذا شهدت أربع شهادات بالله أنه كاذب في اتهامه لها بالزنا. ثم عليها أن تزيد شهادة خامسة فتقول: إن غضب الله علي إن كان زوجي من الصادقين في اتهامه لي، أي: أنها تدعو على نفسها بسخط الله عليها.

ولا شك أن الغضب أخف من اللعن.

والغالب أن المرأة بعد الملاعنة قل أن يرغب فيها أحد، لذلك لم يجمع الله لها بين العقوبتين، وهما: الطرد والإبعاد عن رحمة الله ونبذ المجتمع لها.

[١٠] ثم ختم جل وعلا هذه الآيات ببيان جانب من فضله على خلقه، فقال سبحانه: ولولا فضله عليكم بهذا التشريع وهذه الأحكام للأزواج والزوجات لعاجل الكاذب من المتلاعنين بالعقوبة، ولكنه ستر على الزوجين رحمة وتفضلًا منه، وحضًّا لهما على التوبة والرجوع إليه، واعلموا أن الله كثير التوبة لعباده التائبين، وأنه حكيم في شرعه وتدبيره.

وفي هذا دليل أن ما جاء من الغضب واللعن في هذه الآيات أنه يزول بعد ترك الذنب والرجوع إلى طلب رضوان الله بالأعمال الصالحة.

[١١] واعلموا أيها الناس أن أولئك الذين جاءوا بأشنع كذبة عرفها التاريخ – وهو اتهام أُمِّنَا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بفاحشة الزنا – هم جماعة ينسبون إليكم ظاهرًا، ولا تظنوا أن قولهم هذا شرٌّ لكم؛ بل هو خير لكم، ومن الخير العظيم في هذه الحادثة:

١ – أن الله شرَّع عقوبة رمي المؤمنات.

٢ – أنها كانت سببًا في فضح من كان يستر نفاقه.

٣ – أن الله كرَّم أم المؤمنين عائشة ورفع قدرها وذكر براءتها في قرآن يتلىٰ إلىٰ يوم القيامة.

٤ – أثبتت هذه القصة أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب؛ حيث جلس شهرًا مهمومًا حتىٰ نزل الوحي من الله.

٥ – أن فيها تسلية للنبي ﷺ والصحابة عمَّا أصابهم من الهم والغم بسبب هذه الفرية العظيمة، ثم بين سبحانه أن كل فرد خاض في هذا الإفك وهذه الجريمة سوف ينال العقوبة التي يستحقها إلا الذين جلدوا الحد وتابوا، أما ذلك الذي اختلق هذه الفرية وهذه الكذبة وحمل كبرها وهو رأس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول فله عند الله عذاب عظيم في الآخرة، وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار.

[١٢] ثم قال سبحانه: هلَّا ظن المؤمنون والمؤمنات –الذين سمعوا هذا الخبر أو تناقلوه– بإخوانهم وأخواتهم خيرًا، فكما تظن بنفسك وأهلك أيها المؤمن الخير والصلاح والاستقامة؛ كان الواجب عليك أن تظن ذلك بأطهر البيوت وأزكاها وهو بيت المصطفىٰ ﷺ، وكان الواجب أيضًا فور سماعكم هذا الخبر الشنيع أن تقولوا: إن هذا كذب واضح وبين علىٰ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

[١٣] وقال جل شأنه: هلّا جاء هؤلاء القاذفون بأربعة شهداء عدولٍ مرضيين علىٰ ذلك؟! فإذ لم يجيئوا بهؤلاء الشهود؛ فأولئك في حكم الله هم الكاذبون، وحينئذ يقام عليهم حد القذف.

[١٤] ثم قال عز وجل: ولولا أن الله تفضل عليكم وشملكم بعفوه ورحمته في الدنيا، بأن فتح لكم باب التوبة، وفي الآخرة بمغفرة ذنوبكم وستر عيوبكم؛ لأصابكم بسبب ما خضتم فيه من شأن الإفك العذاب العظيم.

[١٥] وقال سبحانه: إذ يتلقف هذا الحديث بعضُكم من بعضٍ، وتتناقلونه من غير تحقُّقٍ ولا بيِّنة، وتتكلمون فيه بجهل عن حقيقته، وتظنون أن هذا شيء يسير هيِّنٌ لا يلحقكم به إثم، وهو في الحقيقة عند الله: أمرٌ عظيمٌ كبيرٌ؛ إذ فيه مسٌّ لعرض النبي ﷺ، ولعرض الصديق والصديقة رضي الله عنهما.

[١٦] وقال جل في علاه: كان الأليق بكم والأجدر بمقامكم أنكم إذا سمعتم مثل هذا القول أن تنكروه، وأن تقولوا: لا يحق لنا أن نتكلم بهذا الكذب والافتراء، سبحانك يا الله تنزيهًا لك، هذا القول كذب بشعٌ شنيع.

[١٧] وبعد أن وقعتم فيما وقعتم به من الإفك العظيم فإن الله سبحانه وتعالىٰ ينصحكم وينهاكم ويحذركم أن تعودوا لمثل هذا القول وهذا الاتهام أبدًا ما حييتم، فإياكم إياكم أن تقعوا فيه مرة أخرىٰ؛ إن كنتم مؤمنين إيمانًا صادقًا.

[١٨] ثم أخبر جل وعلا أنه يبين لكم الآيات التي فيها نجاتكم، والتي فيها الهدىٰ والنور، والوعظ والإرشاد، ويوضحها لكم، والله عليم بأفعالكم وامتثالكم، حكيم فيما يشرعه لكم، ويفرضه عليكم.

[١٩] واعلموا أيها الناس أن الذين يحبّون أن تنتشر وتشتهر الفاحشة من الزنا والقذف به، وغيره من الفواحش في المؤمنين، ويفرحون بذلك؛ لهم عذابٌ أليم موجعٌ في الدنيا: بإقامة الحدِّ عليهم، وبغيره من الابتلاءات، وفي الآخرة – إن لم يتوبوا –: بدخول النار، والله يعلم ما يُصلحكم ومجتمعاتِكم من الأحكام والشرائع، وأنتم لا تعلمون.

[٢٠] واعلموا أيضًا أنه لولا إحاطة فضل الله بكم، وأن رحمته شملتكم ووسعتكم لعاجلكم بالعقوبة علىٰ ما اقترفتموه، ولكنَّ الله من رأفته ورحمته بكم لم يعاجلكم العقوبة؛ بل أمهَلَكُم ووعظكم وعفا عنكم لمّا تبتم.

[٢١] يحذِّر جل وعلا عباده المؤمنين، وينهاهم عن اتباع طُرُق الشيطان، والمشي خلف وساوسه وتزيينه، فإن من اتبع الشيطان وسلك سبيله؛ فسيأمره الشيطان بقبيح الأفعال والأقوال وشنيعها ومُنْكَرِها، ولولا أن فضل الله يشملكم، ورحمتُه تحيطُ بكم؛ ما تطهَّر أحد منكم من اتِّباع خطوات الشيطان، ومن دنس ذنوبه أبدًا، ولكنَّ الله يطهِّر من يشاء من عباده تفضلًا عليهم، ورحمةً بهم، والله سميعٌ لِمَن دعاه، وطلب منه أن يزكّيه، عليمٌ بنيات العباد وأفعالهم.

[٢٢] نهىٰ جل وعلا صاحب الفضل في الدين والسعة في المال أن يحلف بمنع فضله وإحسانه علىٰ أولي القربي والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ممن تصدر منهم إساءات نتيجة الجهل والتقليد؛ وأمرهم أن يتجاوزوا عن أخطائهم ويصفحوا عنهم ولا يعاقبوهم، وعليهم أن يواصلوا إحسانهم ومعروفهم لأنهم إنما يبذلون ذلك لوجه الله وطلب مرضاته وغفرانه؛ ألا تحبون أيها المؤمنون أن يغفر الله لكم ذنوبكم ومعاصيكم؛ فإنه سبحانه كثير المغفرة لمن تاب وأناب إليه من عباده، واسع الرحمة بهم.

وهذه الآية نزلت في أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، والأمر وإن كان خاصًّا به إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولذا فهي تعم كل صاحب فضل وإحسان بأن لا يقطع نفقته عن قريبه الذي أساء إليه ثم تاب وطلب منه العفو والمسامحة.

[٢٣] يخبر جل وعلا أن الذين يرمون المؤمنات العفيفات البعيدات عن الفجور، اللاتي لا يخطر ببالهن ذلك أصلًا؛ مطرودون ومُبْعَدون من رحمة الله، ولهم عذابٌ عظيمٌ في الدنيا بإقامة الحدِّ عليهم، وفي الآخرة - إن لم يتوبوا - بعذاب النار المؤلِم الموجِع.

[٢٤] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المطرودين والمبعدين من رحمة الله تشهد عليهم ألسنتهم يوم القيامة بما تكلمت به، وتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما عملوا في الدنيا؛ إذْ يُنطقها الله جل في علاه في ذلك اليوم العظيم.

[٢٥] ثم أخبر جل في علاه أن هؤلاء الذين يرمون المحصنات بفاحشة الزنا سوف يجازيهم يوم القيامة جزاءهم الحق الذي استحقوه - بما قدَّمت أيديهم -، ويعلمون حينها علم اليقين: أن الله هو الحقُّ المبين.

[٢٦] ثم يخبر جل وعلا أن الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، فكل خبيث وخبيثة متوافقان ومتشاكلان ويناسب بعضهما بعضًا، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، فكل طيب وطيِّبةٍ متوافقان ومتشاكلان، ويناسب بعضهما بعضًا، ثم بين سبحانه أن الطيبين والطيبات - وفي مقدمتهم وعلىٰ رأسهم رسول الله ﷺ، وعائشة رضي الله عنها - مُبَرَّؤون ومُنَزَّهون مما يرميهم به الخبيثون والخبيثات من الأقوال أو الأفعال، وأن لهم مغفرةً من الله، ومحوًا لذنوبهم، وسِتْرًا لعيوبهم، ولهم من الله رزق كريم في الجنة.

[٢٧] نهىٰ جل وعلا عباده المؤمنين عن اقتحام بيت غيرهم، وفرض الاستئذان والسلام لتحصل المؤانسة، فقال: ياأيها الذين آمنوا بالله وصدقوا الرسول ﷺ لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم حتىٰ تستأذنوا أهلها بالدخول فتقولوا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أأدخل؟ واعلموا أن ذلك الاستئذان خير لكم، لعلكم تتذكرون هذا الإرشاد كي تعملوا به، وتكونوا دائمًا متذكرين له.

[٢٨] ثم قال سبحانه وتعالىٰ: فإذا لم تجدوا من يأذن لكم فلا تدخلوها حتىٰ تجدوا من يملك الإذن لكم بدخولها، فإن استأذنتم فلم يُؤذَن لكم، أو قيل لكم: ارجِعوا، فعليكم أن ترجعوا مباشرة، ولا تغضبوا من ذلك، فإن امتثالكم للرجوع من غير سخطٍ أطهر وأنقىٰ لقلوبكم، والله بما تعملون عليم، لا يخفىٰ عليه شيء من نياتكم وضمائركم وأعمالكم.

[٢٩] ثم بين جل شأنه أن البيوت التي ليست مملوكةً لأحدٍ غيركم، أو البيوت المعدَّة لابن السبيل ولكم حاجةٌ في دخولها؛ فهذه ليس عليكم حرج وإثم أن تدخلوها من غير أن يُؤذَن لكم، والله يعلم ما تُظهِرون وما تُخفون من النيات والأقوال والأعمال.

[٣٠] أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم عن النساء اللَّاتي لا تحل لهم، وأن يحفظوا فروجهم من فعل الفاحشة، وليعلموا أن غض البصر وحفظ الفرج أطهر لنفوسهم، واعلموا أن الله خبير بما تصنعون أيها الناس، لا يخفىٰ عليه شيء من تصرفاتكم.

[٣١] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يأمر المؤمنات بغض أبصارهن عمَّا لا يحل لهن من العورات؛ لأن النظرة سهم من سهام إبليس، وربما تكون عواقبها سيئة، ولأن الناس يكرهون أن يطَّلع الناس علىٰ عوراتهم وأن يتجسسوا عليهم، وعليهن أن يحفظن فروجهن من الفاحشة وكل ما حرم الله.

قال بعض العلماء: قدم الله غض البصر في هذه الآية والتي قبلها؛ لأن النظر بريد الزنا، وفي الحديث الذي أخرجه أحمد في المسند والحاكم وابن حبان: «**اضمنوا لي ستًّا أضمن لكم الجنة: ذكر منها: غضوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم**»(١).

ثم أمر سبحانه النساء أن لا يبدين زينتهن لأي أحد من الرجال، وعليهن أن يجتهدن في إخفائها، إلا الثياب التي لا يمكن التحرز منها واعتاد الناس علىٰ لبسها وإظهارها، وليس فيها ما يدعو إلىٰ الفتنة ونحوها، وعليهن أن يلقين بالأغطية علىٰ رؤوسهن مغطيات صدورهن ليكمل سترهن، ولا يُظْهِرْنَ الزينة الخفية إلا لأزواجهن؛ حيث يجوز للزوج رؤية جميع جسد زوجته.

وقد استثنىٰ جل وعلا بعض أصناف الرجال أن يروا بعض الزينة الخفية؛ كالوجه، والعنق، واليدين، والساعدين ونحو ذلك، وهؤلاء الأصناف هم: آباؤهن، وآباء أزواجهن، وأبناؤهن، وأبناء أزواجهن الذين من غيرهن، وإخوانهن، وبنو إخوانهن، وبنو أخواتهن.

وهؤلاء السبعة كلهم من المحارم، ويلحق بهم الأعمام والأخوال والمحارم من الرضاع، والأصول وإن علوا، والفروع وإن سفلوا.

ثم استثنىٰ جل وعلا أصنافًا أخرىٰ من الناس لهم أن يروا بعض الزينة الخفية، وهم: النساء المسلمات المختصات بهن، وما ملكت أيمانهن من الإماء لا من العبيد البالغين. وكذلك ممن استثنىٰ الله التابعون غير أولي الإربة من الرجال الذين لا غرض لهم ولا حاجة في النساء ولا تحدثهم أنفسهم بفاحشة كالبله والمجانين ونحوهم، وكذلك الأطفال الذين ليس لهم علم بأمور عورات النساء ولم يصلوا إلىٰ المرحلة التي يشتهون فيها النساء، ثم أمرهن جل وعلا أن لا يضربن بأرجلهن الأرض عند المشي لكي لا يعلم الأجانب من الرجال ما تخفيه المرأة من الزينة كالخلاخل ونحوها، بقصد النظر إليهن والميل نحوهن ومحادثتهن ونحو ذلك.

فهؤلاء اثنا عشر صنفًا من الناس ليس علىٰ المرأة حرج في أن تظهر بعض الزينة الخفية أمامهم، لانتفاء الفتنة التي من أجلها شرع الله الستر والغطاء.

ثم ختم جل وعلا الآية بأمر المؤمنين بطلب التوبة الصادقة النصوح؛ لأن الإنسان مهما حافظ علىٰ نفسه فإنه لا يسلم من الغفلات أو اللمحات، فعليكم أيها المؤمنون الرجوع إلىٰ الله ربكم، وطاعته فيما أمركم به من الطاعات، والابتعاد عمّا نهاكم عنه من الذنوب والمعاصي، لكي تفوزوا بخيري الدنيا والآخرة.

ومن أجل هذه التعليمات العظيمة قال القرطبي وغيره من علماء التفسير: إن هذه السورة حافلة بتعليم الآداب والعفاف والستر؛ فهي نهت عن الزنا، ثم نهت عن كل ما يفضي إليه، بأن وضعت في طريقه السدود والحواجز الوقائية؛ كتحريم الاختلاط والخلوة والنظر وحفظ الفروج وعدم التبرج، ثم حثت علىٰ كثرة التوبة مما يقع فيه الإنسان من خطأ وخلل ونحوه.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٧٥٧)، وابن حبان (٢٧١)، والبيهقي في سننه الكبرىٰ (١٢٦٩١).

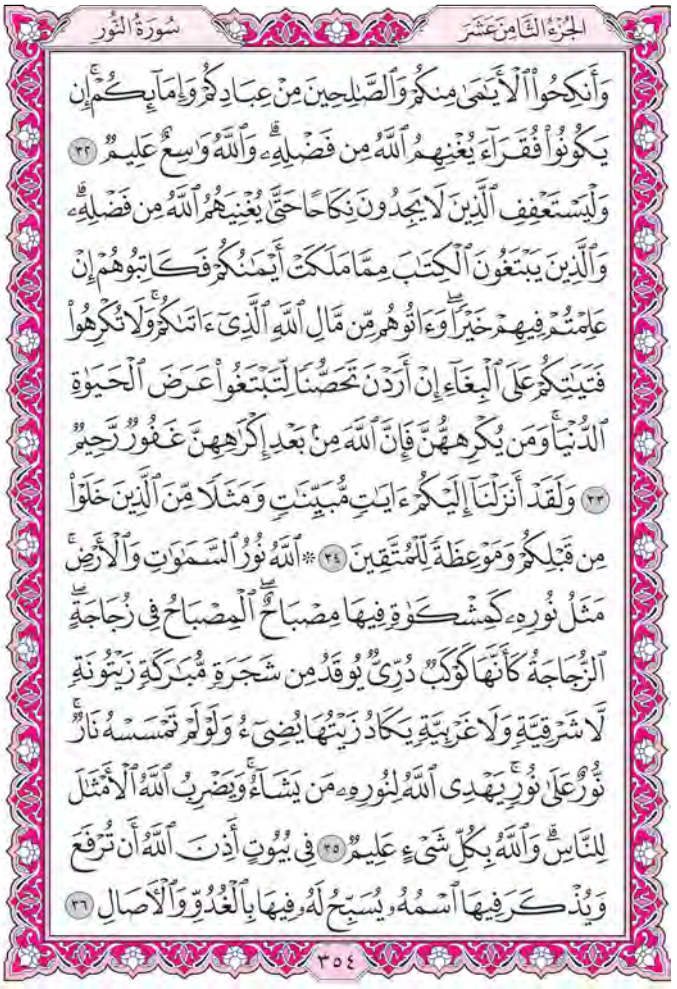

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن
يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾
وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ
وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ
عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟
فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟
مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ
مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ
ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ
لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ
نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ
لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ
وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾

[٣٢] حث جل وعلا السادة وملاك الأرقاء والرجال القادرين على تزويج كل أيم بلغ رشده من أبنائهم وبناتهم، والصالحين من عبيدهم وجواريهم؛ لأن الزواج هو الطريق الوحيد المشروع لقضاء الشهوة، ثم طمأن الخائفين من الحاجة والفقر بأن الله سيغنيهم من فضله، فإنه سبحانه غني حميد، واسع الغنى حميد الفعال، لا تنفد خزائنه ولا ينتهي ما عنده من خير، عليم بأحوال عباده لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٣٣] أما الذين لا مادة لهم وليس لهم من يسندهم ويساعدهم على الزواج فقد أمرهم جل وعلا بالاستعفاف، وأن ينتظروا الفرج والغنى منه سبحانه، وأمر المُلَّاك إذا طلب منهم مواليهم أو إماؤهم المكاتبة لتحرير أنفسهم أن يتعاونوا معهم ويساعدوهم في ذلك إذا علموا فيهم صلاحًا وقدرة على التكسب، وعليهم أن يعطوهم شيئًا من المال أو أن يحطوا عنهم شيئًا مما كوتبوا فيه، ثم نهى جل وعلا عن رذيلة وفاحشة كانت منتشرة في المجتمع الجاهلي لتطهيره منها، فأخبر أنه لا يجوز إكراه الجواري اللاتي يُرِدْنَ الطهر والعفاف على الزنا من أجل الحصول على المال، ومن يكرههن على الزنا فإن الله من بعد إكراههن غفور لهن ورحيم بهن، أما الذين أكرهوهن على الزنا فإنهم آثمون وسيجازيهم الله على فعلهم بما يستحقون من العقاب.

وقوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ ...﴾، نزلت في رأس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول؛ حيث كان عنده فتيات إماء مملوكات له يكلفهن ويكرههن بجمع المال له من البغاء.

[٣٤] يقسم جل وعلا أنه أنزل للناس في هذا القرآن على وجه العموم، وفي هذه السورة على وجه الخصوص آيات بينات وموضحات لما يحتاجه البشر من الحدود والأحكام والآداب، وأنزل فيه أمثلة مما حل في الأمم من قبلهم لتكون عبرة وعظة لهم، وجعل سبحانه هذه الآيات موعظة للمتقين الذين يتقون الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وخصص جل وعلا المتقين بالانتفاع، لأنهم هم الذين تهمهم السلامة من الآثام، ويطلبون رضا الله والفوز بالجنة.

[٣٥] يخبر جل وعلا أنه منور السماوات والأرض وهادي أهلها إلى الإيمان والقرآن، مثل نوره الذي يهدي إليه كمشكاة، وهي فتحة في الحائط غير نافذه، وفي هذه الفتحة مصباح؛ وهذا المصباح في زجاجة، وهذه الزجاجة كأنها كوكب مضيء كالدرِّ من شدة صفائه وتوهجه، وهذا المصباح يستمد نوره من زيت شجرة الزيتون المباركة، وهذه الشجرة متوسطة في مكان من الأرض تسطع عليها الشمس عند شروقها وعند غروبها وما بين ذلك، يكاد زيتها من صفائه أن يضيء من نفسه دون أن تمسه النار، فصار نورًا على نور، نورًا من صفاء الزيت، ونورًا من إشعالها بالنار، ثم بين جل وعلا أنه يهدي لنوره العظيم من يشاء هدايته من عباده، بأن يوفقهم لفهم كتابه والاستنارة بنوره، هداية خاصة توصلهم إلى النور العظيم الشأن الآتي من الله، ويضرب الله الأمثال للناس لكي يقرب لهم الأمور وييسرها لهم، ويعرفوا الحكمة من أمثاله، والله بكل شيء عليم لا يخفى عليه شيء، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، النور نوعان:

١- نور حسّي مخلوق، وهو نور صادر من الكواكب ونحوها، وهذا النور مستمد من الله؛ لأنه هو الذي ينوِّر الكون.

٢- ونور معنوي: وهو نور الإيمان بالله ونور شرعه وكتابه.

[٣٦] ثم بين جل وعلا أن النور المضيء الذي يهدي الله إليه من يشاء من عباده، هم أولئك الرجال الذين هداهم الله لنوره، والذين يتعبدونه سبحانه في تلك المساجد التي أمر ببنائها وتعظيم شأنها وقدرها، ويذكرون فيها اسمه بتلاوة كتابه، ويسبحون ويهللون فيها بكل أنواع الذكر، ويصلون فيها لله صباحًا ومساءً، ويرفع فيها صوت النداء للصلاة.

[٣٧] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء الذين يذكرون الله ويسبحونه في بيوت الله هم رجال من صفاتهم: أنهم لا تلهيهم، أي: لا تشغلهم التجارة ولا البيع عن ذكر الله وعن تسبيحه وتحميده وتهليله، ولا ينشغلون عن إقامة الصلاة في أوقاتها المحددة، ولا عن إيتاء الزكاة لمستحقيها، مهما كانت أهمية هذه الأنشطة ومهما كانت حاجتهم لها؛ فهم يتاجرون ولكن ذلك لا يمنعهم عن العبادة والذكر والتسبيح، ومع هذا كله فهم يخافون يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب من شدة فزعه وعظيم هوله، وتتقلب فيه الأبصار تنظر إلىٰ مصيرها المكتوب لها.

[٣٨] ثم أخبر جل وعلا أنه سيجزي المؤمنين الذين يذكرون الله كثيرًا ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وغيرها من العبادات أحسن الجزاء علىٰ أعمالهم الصالحة، ويزيدهم من فضله وإحسانه بمضاعفة أجورهم، والله يرزق من يشاء من عباده بغير حساب.

ولا شك أن هؤلاء هم الرجال بحق لأنهم غلّبوا طلب رضا الله علىٰ حظ أنفسهم فجمعوا بين الحسنيين؛ فاستحقوا فضل الله ورضوانه؛ والجزاء الكبير علىٰ أعمالهم.

[٣٩] والذين كفروا بالله، ولم يصدّقوا رسله، فإن أعمال الخير التي عملوها - من صلة رحمٍ وسقاية حاجٍّ ونحوها -، وظنوا أنها ستنفعهم؛ محقها الله وأفناها وجعلها كمثل السراب يظنه ويتوهمه العطشان شديد العطش إذا رآه من بعيد ماءً، فيحثُّ السير إليه، حتىٰ إذا اقترب منه وأبصره لم يجده شيئًا، فتَكْبُر حسرته، ويخيب أمله، فكذلك أعماله يظن أنها ستنفعه؛ فإذا جاء يوم القيامة لم يجدها إلّا هباءً منثورًا بسبب تركه للتوحيد، ثم وجد الله تعالىٰ - الذي لم يحسب له حسابًا - له بالمرصاد؛ يحاسبه ويجازيه علىٰ أعماله أتم الجزاء وأوفاه، والله سريع الحساب.

[٤٠] يخبر جل وعلا عن أعمال الكفار أنها مثل ظلمات في بحر عميق يعلوه موج، ومن فوق الموج موج آخر أشد منه، ومن فوق هذا الموج سحاب كثيف متراكم، وهذه كلها ظلمات شديدة بعضها فوق بعض؛ فإذا أراد أن يخرج يده فإنه لا يكاد أن يراها من شدة الظلمات، وهكذا الكفار تراكمت عليهم ظلمات الشرك والكفر والضلال والذنوب والمعاصي وفساد الأعمال؛ فلذلك بقوا في الظلمة متحيرين، وعن الصراط المستقيم مدبرين، وفي طريق الغي والضلال سائرين، وهذا كله لأن الله خذلهم بسبب عنادهم وإصراهم علىٰ الكفر والضلال فلم يعطهم الله من نوره، ولا شك أن من لم يجعل الله له نورًا من كتابه وسنة نبيه ﷺ يهتدي بها إلىٰ الصراط المستقيم، فما له من نور يهديه إلىٰ الحق والخير والعمل الصالح؛ فاللهم اجعل لنا نورًا يوصلنا إلىٰ رضوانك يارب العالمين.

[٤١] ثم قال سبحانه وتعالىٰ: ألم تعلم يانبي الله أن الله يسبح له جميع من في السماوات وجميع من في الأرض، وما بينهما؟؛ بل حتىٰ الجمادات تسبح له جل في علاه؟، والطير أيضًا تسبح له سبحانه حال كونها صافّات أجنحتها في السماء؟ كلٌّ ألهمه سبحانه الصلاة والتسبيح حسب تكوينه، إما أن يكون ذلك بفطرته التي فُطر عليها، أو يكون بإلهام أو وحي منه جل وعلا، لا يخفىٰ عليه سبحانه شيء من ذلك، والله عليم بكل أفعال عباده وأقوالهم، مطّلع علىٰ ما يفعله كل عابد ومسبح، وسيجازي كلًّا بما يستحقه من الثواب والعقاب.

[٤٢] ثم بين سبحانه أن له وحده لا لغيره مُلْك وتدبير السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، وإليه سبحانه المآل والمرجع يوم القيامة.

[٤٣] ثم قال جل في علاه: ألم تنظر أيها الإنسان وترىٰ بعينيك أن الله جل وعلا يسوق السحاب ويدفعه إلىٰ حيث يشاء بقدرته، ثم يجمعه بعد تفرقه، ثم يجعله متراكمًا؛ ليؤلف كتلة السحاب الماطرة؛ فترىٰ كيف ينزل منها المطر؟ حسب حكمته التي اقتضتها مشيئته، وينزل من السحاب الذي يشبه الجبال في عظمته بَرَدًا، فيصيب به من يشاء من عباده، ويصرفه عمن يشاء بحسب حكمته وتقديره، يكاد ضوء ذلك البرق في السحاب من شدته وقوة لمعانه أن يذهب بأبصار الناظرين إليه.

يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾
وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن
يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ
وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ
ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ
ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ
يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ
أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا
كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن
يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن
يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ
﴿٥٢﴾ * وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل
لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

[٤٤] يخبر جل وعلا أن من دلائل قدرته العظيمة أنه يقلب الليل والنهار، فإذا جاء الليل ذهب النهار، وإذا جاء النهار ذهب الليل، وإذا نقص أحدهما زاد في الآخر، وهكذا، كل ذلك يتم بحساب دقيق بعلمه سبحانه وتعالىٰ، ثم أخبر سبحانه أن في ذلك عبرة يعتبر بها أولو الأبصار التي تبصر قدرة الله وتعتبر بها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢]، أي: أن من حكمة الله في خلق الليل والنهار هو الاعتبار والاتعاظ أن الله لم يخلقهما عبثًا، وكذلك شكر الله علىٰ هذه النعمة وغيرها من النعم التي لا تعد ولا تحصىٰ.

[٤٥] يخبر جل وعلا أنه خلق كل ما يدب علىٰ الأرض من ماء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠]؛ ثم ذكر قدرته علىٰ تنويع الخلائق، فمن خلقه من يمشي علىٰ بطنه كالحيات ونحوها، ومنهم من يمشي علىٰ رجلين كالإنسان والطير، ومنهم من يمشي علىٰ أربع كالبهائم ونحوها، وهو سبحانه يخلق ما يشاء، إنه علىٰ كل شيء قدير، وقدرته جل وعلا لا حدود لها لا يعجزه شيء؛ فسبحانه الخلاق المبدع.

[٤٦] ثم أخبر سبحانه أنه أنزل في القرآن آيات بيناتٍ واضحات الدلالة علىٰ توحيده، وكل ما يحبّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، والله يهدي ويوفق للحق والصواب والرشاد من يشاء برحمته وفضله مِمَّن أناب ورغب في الهداية إلىٰ الطريق الحق الذي لا اعوجاج فيه، وهو الإيمان والتوحيد الذي يوصل صاحبه إلىٰ جنات النعيم.

[٤٧] ثم أخبر سبحانه أن المنافقين يقولون بألسنتهم فقط: لقد صدَّقنا بالله وبما جاء به الرسول ﷺ وأطعنا أمرهما، ثم تُعرض مجموعة كبيرة منهم بعد ذلك فلا تقبل حكم الرسول ﷺ، فاعلموا أيها الناس أن أولئك ليسوا بمؤمنين، لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

وسبب نزول هذه الآية أن سيد المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول كان بينه وبين يهودي خلاف فدعاه اليهودي إلىٰ المحاكمة عند رسول الله ﷺ والمنافق طلب أن يحكم بينهما كعب بن الأشرف.

والآية عامة لأن لهما نظائر وأشباه؛ فهناك أناس ضعيفو الإيمان إذا صار أحدهم محقًّا وعلم أن الحق بجانبه طلب المحاكمة عند الرسول ﷺ، وإذا كان مبطلًا رغب في حكم غيره. والآية نصَّت علىٰ أن مثل هؤلاء ليسوا بالمؤمنين، كما نص علىٰ ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]، وفي زمننا هذا فإن البلاد التي فيها محاكم عُرفية ومحاكم شرعية، فإن المبطل يطلب التحاكم في المحاكم العرفية.

[٤٨-٤٩] ثم أخبر جل شأنه أنه إذا حصلت بين المنافقين وبين أحد خصومةٌ ثم طُلِبوا إلىٰ حكم الله ورسوله ليفصل بينهم؛ إذا فريقٌ منهم يعرضون ويرفضون التحاكم لله ورسوله ﷺ، ويبتغون حكم الجاهلين. أما إذا كان الحق في صالحهم إذا تحاكموا إلىٰ الشرع؛ فإنهم يأتون طائعين منقادين مسرعين؛ لأنه يثبت الحق لصالحهم.

[٥٠] ثم سأل سبحانه عمَّن كانت هذه حالتهم، وتلك صفتهم: هل في قلوبهم مرض الكفر والنفاق؟!، أم شكُّوا في حكم النبي ﷺ وعدله؟! أم يخافون ويخشون أن يحكم الله ورسوله عليهم حكمًا ظالمًا؟!! فأجاب سبحانه بقوله: بل أولئك هم الظالمون المجاوزون حدَّهم.

[٥١] ثم يقول جل في علاه: إنما كان قول المؤمنين بالله حقًّا، والمنقادين لشريعته صدقًا: إذا دعوا إلىٰ الله ورسوله ليحكم بينهم، أن يقولوا مباشرةً: سمعًا وطاعةً، وحبًّا وكرامةً، ولا يخالف ذلك أهواءهم، ومن كانت هذه صفتهم؛ فأولئك هم المفلحون، الذين يفوزون بالمطلوب، وينجوْن من المكروه؛ سواء حكم لهم أو لغيرهم.

[٥٢] واعلموا أيها الناس أن من يطع الله ورسوله، أمْرًا ونهْيًا، وينْقَادَ لهما، ويخاف من الله سرًّا وعلنًا، ويترك ما نهىٰ الله عنه؛ فأولئك -وحدهم- هم الفائزون الآمنون من عذاب الله، المُنعَّمون برحمة الله في جنات النعيم.

[٥٣] ثم أخبر جل وعلا أن المنافقين أقسموا بالله الأيمان المغلَّظة لئن أمرهم النبي ﷺ بالخروج للجهاد ليخْرُجنَّ معه، وليستجيبُنَّ له، فقل لهم يانبي الله: لا تقسموا بالله الأَيمان الكاذبة، فإنَّا قد عرفنا طاعتكم، وقد نبَّأنا الله من أخباركم، فإن كنتم حقًّا مؤمنين فأطيعوا الله وامتثلوا أوامره، واعلموا أن الله خبير بأعمالكم، مطَّلعٌ علىٰ سرائركم ونياتكم.

[٥٤] وقل يانبي الله للناس: أطيعوا الله وأطيعوا رسوله ﷺ، وامتثلوا أمرهما، فإن توليتم وأعرضتم عن طاعة الرسول ﷺ فإنا لمْ نكلِّفْه إلّا الرسالة والبلاغ، وقد أدَّاها وقام بحقِّها، وعليكم أنتم ما كُلفتموه من الانقياد والطاعة والامتثال، واعلموا أنكم إن أطعتم الرسول ﷺ وامتثلتم أمره؛ اهتديتم - لا محالة - إلىٰ الصراط المستقيم، واعلموا أنه ليس علىٰ الرسول إلّا البلاغ البيِّن الواضح، وقد فعل ﷺ.

[٥٥] ثم بشّر جل وعلا المؤمنين بالنصر والتمكين بشرط أن يؤمنوا بالله ويصدِّقوا الرسول ﷺ ويعملوا الصالحات؛ فمن اتصف بهذه الصفات فسوف تكون لهم العاقبة، بأن يورثهم أرض المشركين، ويجعلهم خلفاء فيها، كما ورثها الذين من قبلهم الذين آمنوا بالله ورسله، وأن يمكن لهم نشر دين الإسلام فيكون دينًا عزيزًا مكينًا ثابتًا في القلوب راسخًا في النفوس، وأن يبدل حالهم من الخوف إلىٰ الأمن والاطمئنان وراحة البال، كل هذا يتحقق إذا عبدوا الله وحده عبادة خالصة تامة، وأن لا يشركوا مع الله شيئًا، أما من كفر بعد الاستخلاف والأمن والتمكين، وجحد نعم الله عليه، واستعمل نعم الله في غير طاعته، فأولئك هم الكافرون الخارجون عن طاعة الله.

[٥٦] يأمر جل وعلا عبادة المؤمنين بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ولا شك أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هما أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين، وهما جامعان لحقه بالإخلاص له بأداء الصلاة بشروطها وأركانها وحضور القلب، وجامعان لحق عبيده بأداء الزكاة علىٰ عباده المستحقين لها، ثم أمرهم بطاعة الرسول ﷺ في سائر ما أمرهم به طاعة تامة رجاء أن يرحمهم الله.

[٥٧] ثم يسلي جل وعلا نبيه ﷺ فيقول له: لا تنزعج يانبي الله من تمتع الذين كفروا وتقلبهم في البلاد، ولا تظنن أنهم معجزون الله وناجون من عقابه إذا أراد أن يعذبهم، كلَّا؛ بل الله قادر علىٰ إهلاكهم، وسوف يجعل مستقرهم النار يوم القيامة، ولبئس هذا المآل والمرجع.

[٥٨] يا أيها الذين أمنوا بالله وصدقوا رسوله ﷺ عليكم أن تمنعوا عبيدكم وإماءكم والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم من الدخول عليكم من غير استئذان في هذه الأوقات الثلاث، التي هي مَظِنَّةُ خلع المرء لثيابه أو لبس ثياب غير ساترة، وهذه الأوقات هي: من قبل صلاة الفجر، لأنه وقت الخروج من ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة، وحين تضعون ثيابكم عند الظهيرة، لأنه وقت خلع الثياب للقيلولة، ومن بعد صلاة العشاء، لأنه وقت النوم.

وهذا الحكم خاص بمن ذكر في هذه الآية، أما البالغون من الرجال والنساء فاستئذانهم واجب في كل الأوقات، واعلموا أن هذه الأوقات الثلاث هي عورات لكم، وأما ما عداها من الأوقات فليس عليكم ولا عليهم حرج أن يدخلوا بدون استئذان، لحاجة دخولهم عليكم، ولأنهم يعيشون بينكم ويطوفون عليكم لخدمتكم، وبمثل هذا البيان لأحكام الاستئذان يبيِّن جل وعلا لكم الآيات والأحكام التي تكون سببًا في سعادتكم ونجاتكم، والله عليم بما يصلح عباده، حكيم في تدبيره أمورهم.

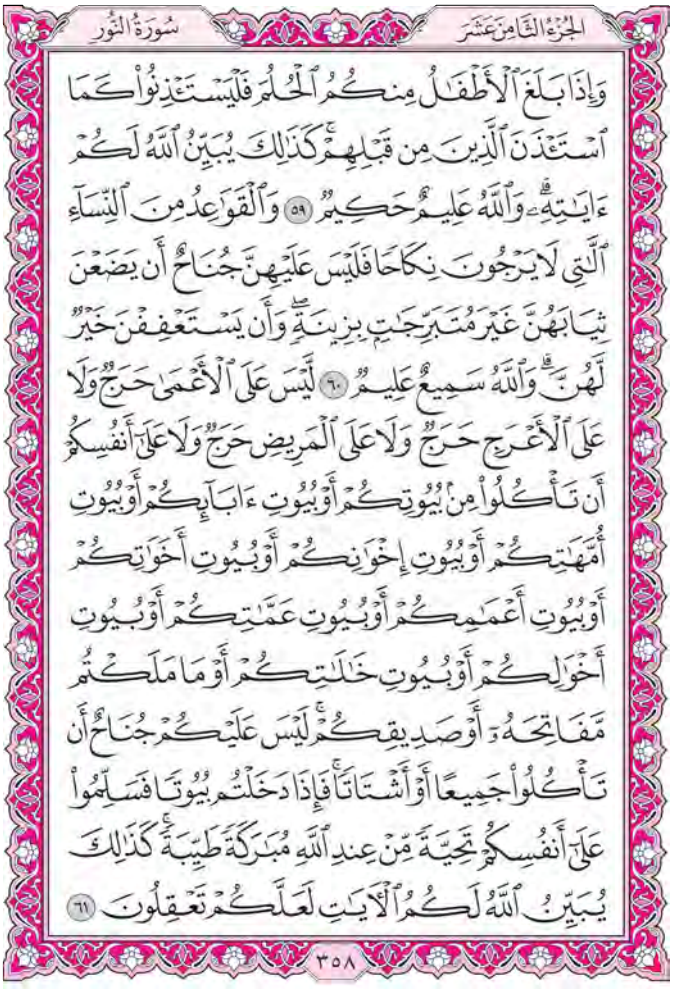
وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

[٥٩] يوجه جل وعلا الآباء والمربين إلىٰ مسألة مهمة تخص الأطفال إذا كبروا وبلغوا سن الاحتلام فعليهم أن يستأذنوا عند الدخول عليكم في سائر الأوقات، كما يستأذن الكبار، كذلك يبين الله لكم آياته ويوضح لكم أحكامه، والله عليم بكل شيء، عليمٌ بما يُصلحكم، ويُصلح أحوالكم، حكيمٌ فيما يشرّعه لكم ويفرضه عليكم.

[٦٠] ثم ذكر جل وعلا مسألة أخرىٰ تتعلق بالقواعد من النساء وهن العجائز اللَّاتي قعدن عن الولد أو الحيض؛ ولا يرغبن في الزواج لكبرهن، ولا رغبة للرجال فيهن؛ فقد خفف الله عنهن الحجاب؛ وأخبر أنه لا حرج عليهن أن ينزعن عنهن ثيابهن الظاهرة أمام الرجال والتي لا تفضي إلىٰ إظهار العورات أو كشف العورة التي أمر الله بسترها، ومع ذلك فقد حثَّهن جل وعلا علىٰ الستر والاستعفاف فهو خير لهن وأطهر لقلوبهن من التبرج وإظهار الزينة، والله جل في علاه سميع لجميع أقوال عباده، عليم بأحوالهم ونياتهم وأعمالهم.

[٦١] بين جل وعلا في هذه الآية بعض الأحكام المهمة التي تهم الناس ويضطرون لها في حياتهم اليومية؛ فأخبر سبحانه بأنه ليس علىٰ أصحاب الأعذار كالأعمىٰ، ومن به عرج، أو المريض؛ إثم في ترك بعض الواجبات التي لا يقدرون علىٰ القيام بها، كالجهاد ونحوه.

ثم بين سبحانه أنه ليس عليكم إثم أيها المؤمنون أن تأكلوا أنتم ومن معكم من بيوتكم التي تملكونها، ولا شك أن أكل الشخص من بيته لا حرج فيه، ولكن ذكره جل وعلا ليبين أن الأكل من بيوت أقاربكم وأصدقائكم يعتبر مثل الأكل من بيوتكم.

ثم ذكر أنه لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوت آبائكم، أو أمهاتكم، أو إخوانكم، أو أخواتكم، أو أعمامكم، أو عماتكم، أو أخوالكم، أو خالاتكم، أو من البيوت التي تملكون التصرف فيها بإذن أصحابها، أو من بيوت أصدقائكم، ولا حرج عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين.

ولاحظ أنه لم يذكر في هذه الآية: (وبيوت أبنائكم)، قيل: لأنها داخلة تحت (بيوتكم)، كما جاء في الحديث: «**أنت ومَالُكَ لأبيك؛ إن أولادَكُم من أطْيَبِ كَسْبِكُم، فكُلُوا من كَسْبِ أوْلادِكُم**»[1].

ثم بين سبحانه إذا دخلتم بيوتًا مسكونة فسلِّموا علىٰ أهلها بتحية الإسلام المعروفة، بأن تقولوا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فإذا كانت هذه البيوت غير مسكونة فسلموا علىٰ أنفسكم بأن تقولوا: السلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين، وهذه التحية شرعها الله، لأنها مباركة تُنْمِّي المودة والمحبة، كما أنها طيبة محبوبة للسامع، واعلموا أيها المؤمنون أنه بمثل هذا التبيين يبيِّن الله لكم آياته المحكمة وإرشاداته النافعة لتعقلوها وتعملوا بها.

---

(١) أحمد في المسند (٧٠٠١)، و أبو داود (٣٥٣٠).

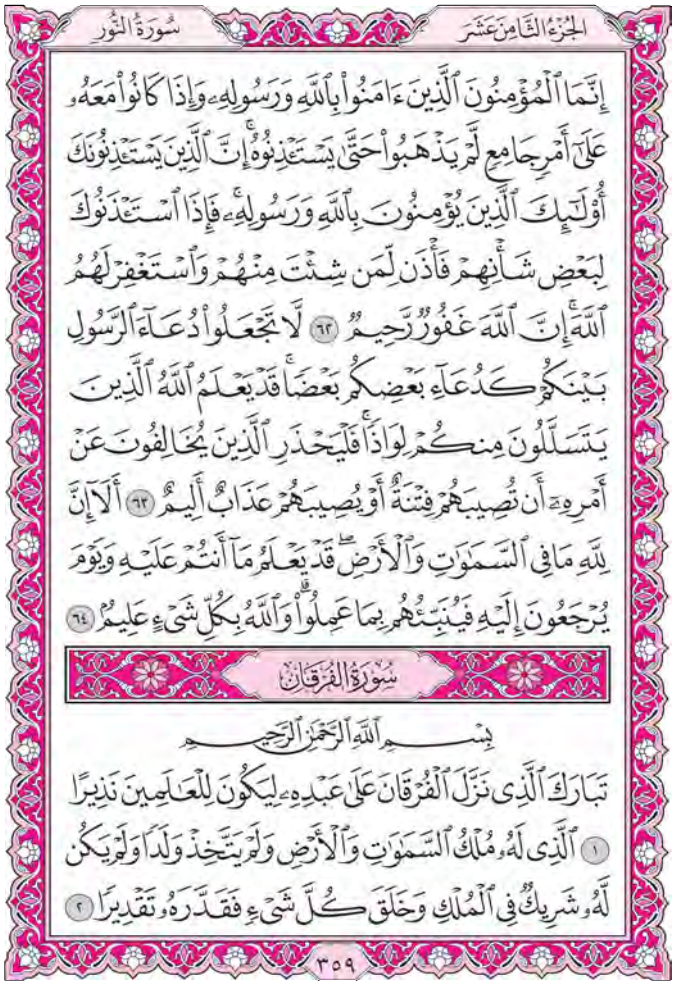
الجزء الثامن عشر — سورة النور

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ
عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ
لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ
ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ
بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ
أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ
لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ
يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

سورة الفرقان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا
﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن
لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

٣٥٩

[٦٢] واعلموا أيها الناس أن المؤمنون الحقيقيين هم الذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله ﷺ، وعملوا بشرعه، وإذا كانوا معك يانبي الله في أمرٍ يتطلب الاجتماع والحضور كالجهاد والمشورة ونحوها، لم ينصرفوا عنك ويتركوك إلّا بعد أن يستأذنوك في ذلك، وهؤلاء الذين يستأذنونك يانبي الله هم الذين يؤمنون بالله ورسوله حقًّا، فإذا استأذنوك لبعض أمورهم وحاجاتهم؛ فأْذَنْ لِمَن شئت منهم، وسل الله لهم غفران الذنوب وستر العيوب، إن الله كثير المغفرة لعبادهَ التائبين، رحيمٌ وسعتْ رحمته كل شيء.

[٦٣] نهىٰ جل وعلا عباده المؤمنين عند نداء الرسول ﷺ أن يقولوا له: يامحمد أو يامحمد بن عبدالله، كما ينادي بعضكم بعضًا، ولكن يجب عليكم أن تقولوا عند ندائه: يارسول الله أو يانبي الله، ثم أخبر سبحانه أنه عليم بالمنافقين الذين يخرجون من مجلس النبي ﷺ خفية بغير إذنه، يستتر بعضهم ببعض حتىٰ يخرجوا جميعًا، فليحذر الذين يخالفون أمر رسول الله ﷺ أن يصيبهم بلاء وكرب ويُقذف الشرك في قلوبهم، أو يصيبهم شر وعذاب أليم موجع في الآخرة.

[٦٤] واعلموا أيها الناس أن لله جميع ما في السماوات والأرض خلقًا وملكًا وعبادةً، قد أحاط سبحانه بجميع ما أنتم عليه، ويوم يرجع العباد إليه يوم القيامة فإنه يخبرهم بأعمالهم، ويجازيهم عليها بما يستحقون من ثواب أو عقاب، والله بكل شيء عليم، لا يخفىٰ عليه شيء من أعمال وأحوال عباده وغيرهم.

سورة الفرقان

سورة الفرقان مكيّة وآياتها سبع وسبعون آية.

[١] بدأ جل وعلا السورة بتقديس نفسه فقال سبحانه: تقدس وتعاظم وتكاثر خير الله جل وعلا فهو مصدر البركات ومن ذلك أنه نزَّل القرآن علىٰ عبده ورسوله محمد ﷺ، الذي فرق به بين الحق والباطل؛ فإن من أجلِّ وأعظم بركاته علىٰ عبده محمد ﷺ الذي كمَّل مراتب العبودية وأتمها؛ أنه أنزل عليه هذا الكتاب المهيمن علىٰ كل الكتب السماوية، وأنزله ليكون رسولًا للثقلين الإنس والجن، ومخوفًا لهم من عذاب الله المعد للكفار والعصاة والمجرمين، وجعله سبحانه خاتمًا للأنبياء والمرسلين.

[٢] ثم وصف جل في علاه ذاته بصفات جليلة توجب له العبادة والطاعة، فمن ذلك:

أن له ملك السماوات والأرض خاصَّة لا ينازعه فيها منازع وهو المهيمن عليهما.

ومن صفاته: أنه لم يتخذ ولدًا، فهو منزه سبحانه عن ذلك، وفي هذا رد علىٰ اليهود والنصارىٰ، ومعلوم أن الخلق من البشر يفرحون بالولد ليخلفهم في عقبهم وذرياتهم وأملاكهم وليكون امتدادًا لذكرهم، والله سبحانه وتعالىٰ حي لا يموت غني عن العالمين كامل الغنىٰ ودائمه.

ومن صفاته: أنه لم يكن له شريك يشاركه في ملكه؛ بل هو المالك وحده لكل ما في الوجود.

ومن صفاته: أنه هو الذي خلق كل شيء خلقًا متقنًا بديعًا، وأعطىٰ كل مخلوق مواهب تخصَّه وتحفظ بقاءه إلىٰ أن ينتهي أجله؛ فتبارك الله رب العالمين.